بسم الله الرحمن الرحيم

حضارة الإسلام

مجلة فكرية جامعة

ربيع الأول	العدد الاول	مايس ــ حزيران
١٣٨٩	السنة العاشرة	١٩٦٩

لا تحزن إن الله معنا

كلما دار الزمن دورته ، وأطلّ على الأكـوان هلال ربيع الأول .. غمر الكون عطر جديد ، لما أن هذا الشهر المبارك ، يحمل في ناظم ذكرياته مولد سيد العالمين محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، كما يحمل هجرته صلى الله عليه وسلم من مسقط رأسه ومرابع صباه مكة المكرمة ، إلى يثرب « المدينة المنـورة » . ولو كان للزمان أن يقول ماينبغي أن يقوله ، لأسمى يوم مولد هذا النبي الهـادي « يوم الإنسان » لأن فيه قد ولد من أعلن برسالته تحرير الإنسان .

ولو كان للانسانية المكدودة ــ التي يعبث بمقدراتهـا ومعاني وجودها ، أكلة لحوم البشر ، ولصوص الدماء ــ حرية أن تختار ... لاختارت أن يكون يوم مولد أبي القاسم ــ فداه أبي وأمي ــ في جبين أيامها المذكورة على مدى التاريخ ، ولأزاحت

من طريقها هذا الغثاء الذي يلبس لبوس العلم حينا ، ويكتسي طيلسان العدالة حيناً آخر، فيجعل من الناس مخلوقات تستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير ، وتنظر الى الأمور بمنظار تلوّنه الأغراض القريبة ، والعصبيات المقيتة ، والكثير من تسويغ الانحراف والضلالة والتضليل .

نقول هذا ، وقد عانت البشرية في رحلتها الطويلة على الآماد ما عانت ، وتمثّلت من التجارب ما تمثلت وما تزال ...

نقوله ، ونحن أبعد ما نكون عن إغلاق المنافذ التي تطلّ على الواقع ، وعن الانحسار إلى حيث تصلّب الفكر دون الوعي والإفادة من عظات التاريخ ، مهما كان لون المسرح الذي درجت على مرابعه الأحداث ، وتحركت الوقائع ..

إن نظرة واحدة تتّسم بمنهجية لاتطغى عليها همجية ، وعلمٍ لايخضعه سلطان جاهل أو بغي ظالم ، وتجرّد لا تنحط بكرامته العصبيات والأغراض والأهواء .. إن نظرة واحدة على هذه الشاكلة ، تجعل من مولد الرسول وأذان رسالته ـ كما هي الحقيقة ـ عنوان ضياء يحمل كل ملامح الفجر الجديد لما تعانيه الإنسانية في ظلامها الدامس الطويل .

فإذا توفرت هذه النظرة المجردة من أعدائنا ، خلية عما قد يشوب من حقد السنين ، وغطرسة السبق المادي والانتصار ، فلا بد ـ لتستقيم الامور ـ أن يرافقها أمر هو أكثر منها أهمية ، وأشد منها خطرا في ميزان القلق على مصير الأمة ، والحرقة على أن تستانف طريقها من جديد .. ذلكم هو الاعتزاز الذاتي من قبل أنفسنا بكل مقومات الرسالة التي جاء بها صاحب هذا المولد عليه الصلاة والسلام ، ذلك الاعتزاز الذي ان توفّر بحق ، حال دون الانهزام الداخلي في تصورات الفرد وسلوك الجماعة ، وحمل على العمل الجادّ المثمر في ظل مبادىء الأمة ومنهج رسالتها القويم .

★ ★ ★

وإذا كنا نقول هذا عن يوم المولد ، فلما أنه قد شرف بشرف من أكرم الله الإنسانية به ، فكان رحمة للعالمين صلوات الله وسلامه عليه ، ولكن يظل يوم المولد ـ على شرفه وكرامته السامية الرائعة ـ فاتحة الخير لما كان على الساحة العملية الايجابية في حياة أمتنا ، التي أسعدها الله برسالة ، كانت رسالة الحياة والايجابية والبناء ، على طريق تنطلق من الايمان والصبر والجهاد ، وتنتهي بالفوز الكبير في الدنيا والآخرة .

وتستبين معالم الخير ويأتي يوم الهجرة الذي كان الحلقة الكريمة

ـ التي تمثل حركية الدعوة بأجلى معانيها وأغلى مظاهرها ـ بعد سابقتها الاولى التي كانت يوم بدء الوحي، وتقليده صلى الله عليه وسلم أمانة النذارة والتبليغ.

ولا نعني هنا ـ الهجرة من حيث هي ـ فلقد ضحّى المسلمون من قبل ، وهاجروا بامر النبي صلى الله عليه وسلم في سبيل الله تاركين ديارهم وأموالهم وذويهم أكثر من مرة ، ولكن نعني الهجرة التي كان هو صلى الله عليه وسلم على رأس المهاجرين فيها ، تلك التي كانت من مكة المكرمة الى المدينة المنوّرة ، والتي هي المرادة عند الإطلاق .

وكون الهجرة بهذه المثابة ، إعلان حركة، وحلقة بارزة من حلقات سيرالدعوة فيطريقها الشائك الصاعدالمرير .. وعنوان تحوّل الى أرض كانت أصلح للغرس بعد سنين من الهول في مكة ، ورحلة صابرة باكية الى الطائف .. أقول إن كون الهجرة بهذه المثابة ، في أذهان أولئك البررة منأصحاب النبي صلوات اللهوسلامه عليه ، هو الذي دعا الى بدء تاريخالاسلام بالهجرة، وسعد العالمبالتاريخالهجري، حيث أعلن ذلك الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضوان الله عليه ، واجمع معه المسلمون . ولولا ذلك : لرأينا البدء بالمولد مثلا ، ولكن الامر منوط بما كان من وعي تلامذة الوحي ، للحركية التي تتمثل في الهجرة من بلد الكفر حيث يفتن المسلمون عن دينهم ، وتوضعكل العقباتفيطريقهم ، وتسلك كل السبلالكافرة، لإفنائهم والقضاء عليهم ، الى البلد الذي استطاعوا ان يتجمعوا على أرضه ، ويغرسوا في منابته بذرة الهدى والخير ، وأن يشكلوا مجتمعا كان خير صورة لخير دولة عرفها بنو الانسان ، لما أن شريعة الله هي التي تحكمه ، ويد محمد بن عبد الله الصناع ثم أصحابه من بعده هي التي تقوده ، وتقدم الى الدنيا كلها ، أنموذجا يحتذى ، وعنوان خير يستضاء بنوره ، وتسير قوافل الحق والخير على هداه .

* * *

واذا كانت كل مراحل الهجرة بدءاً من أسبابها الحركية الايجابية ، الى نتائجها الواقعية العملية في تثبيت دعائم الاسلام ، وتأمين انطلاقته في العالمين.. مع غاية تتقطع دونها الاماني .. ان الأمانة تقتضي هذه الأمة التي تربطها بهذا الحدث الفريد في روعته وجلاله ، أكرم أواصر النسب والقربى ، أن تكون على مستوى الفهم العميق ، والادراكالواعي لمدلولاتكل الوقائع التي تنتظمهاالهجرة، خصوصا ما كان منها على صعيد المعاناة البشرية ، وانعكاسات صورة الانسان ـ كما أراد الله له أن يكون ـ على العمل الذي يكاد يكون فوق طاقة البشر .

وحسبك أن تصيخبسمعك، الى قولالله تعالى في سورة التوبة ـ والحديث

عن الجهاد ونصرة رسول الله ـ : ((إلاّ تنصُروه فقدْ نصَرَه اللهُ إذْ أخْرَجه الّذين كفَروا ثانيَ اثنَينِ إذْ هُما في الغارِ إذْ يَقولُ لِصاحبِه لا تحزَنْ إنَّ اللهَ معَنـا)) لترى واحداً من مشاهد الهجرة ، الذي ضربه الله مثلاً للمسلمين من واقعهم التاريخي ، ذلك المثل الذي يشهد لنصرة الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم ، بلاعون منهم ولا تأييد ، دليل أن النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، وأن العدة المادية لا غناء فيها للمسلمين إن لم يصحبها عون الله وتأييده ونصره .

ولسنا الآن بسبيل أن نعرض لسياق وسباق هذه الكلمات المباركة في الآية ، ولكن حسبنا ان نعلم ان هنالك دعوة الى الجهاد لاعلاء كلمة الله ، وعتاباً لأولئك الذين تثقلهم شؤون الدنيا عن أن ينفروا خفافاً في سبيل الله ، وضرب مثل الهجرة ونصر الله لنبيه وصاحبه الذي كان معه ، وكيف جاء وعد الله للمؤمنين بأحسن العواقب إن هم التزموا عبادتهم اليه تلك الآيات ((انفِروا خِفافاً و ثقالاً وجاهِدُوا بأموالكم وأنفسِكم في سبيل الله ذلكم خيرٌ لكم إن كُنتم تعلمون)) .

والذي يعنينا الآن هذا الذي حكاه القرآن عن النبي صلى الله عليه وسلم :
((لاتحزن إن الله معنـا)) .

فبهذا اللفظ من درر الخلود ، وبتلك الحبّات من نفحات القدس ، أجـاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على كلام ـ صاحبه في الغار ـ عندما قال ابو بكر رضي الله عنه وقد جزع ـ لا على نفسه ولكن على رسول الله ـ أن يطلع عليهما المشركون ، فيخلصوا إلى صاحبه وهاديه الحبيب : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لرآنـا .

الا إن رحاب تلك الكلمات النورانية ، تستعلي في مدلولاتها وآفاقهـا على الحصر . وإنا نذكرها حكاية قرآنية لنطق سيد المهاجرين صلوات الله عليه ، في ساعة اشتد فيها الكرب ، وكادت تقع الواقعة ، وأصبح الخطر مـن الرسول وصاحبه قاب قوسين أو أدنى . نذكرها في جوها وأسبابها ، ونذكرها في مدلولها والآفاق التي تعبر عنها ، كما نذكرها فيما هي انعكاس صادق لواقـع النفس الإنسانية في الانسان وهو إنسان ، وإشعار بما ينبغي أن يكون عليه المؤمن ـ وسهام البلاء تنوشه من هنا وهناك ، والرزايا تسدُّ عليه منافذ الحياة ـ من صلة بالله عز وجل . فالله هو النصير ، والله هو الظهير ، والله هو القاهر فوق عبـاده .

يهدي الى ذلك ـ بمزيد من التأكيد والوضوح ـ قول النبي صلى الله عليه وسلم، مخاطباً الصديق : « يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما » .

والنهي عن الحزن في « لا تحزن » ليس عبثاً ، إنه دليل أن هنالك استعداداً لهذا . فهو من صفات هذه النفس البشرية . ولأمر ما جاء القرآن الكريم في عديد من المواطن على إكرام الله لعباده الصالحين يوم القيامة بأنه « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » وإن كان مبعث حزن ابي بكر هنا ـ كما أسلفنا ـ خوفه على صاحبه الحبيب أن تطوله يد الظلمة أعداء دعوة الحق ورسالة الاسلام . ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه ـ وهو الناصح الامين ـ على معرفة بهذا الواقع في نفس الانسان ، وإنه بما علّمه الله ، لذو علم بالكيفية التي يرتفع فيها بأبي بكر صاعدا في معارج الرقي الذاتي والصفاء النفسي ، فتراه يأخذ بيده من ذلك الواقع الى رحاب أوسع وأشمل ، فلماذا الحزن والله معهما بعونه وتأييده ونصره ، والله معهما بما يهب النفس من الطمأنينة ، وما ينزل في القلب من السكينة ، ولماذا القلق والله ثالث المهاجرين ، سيد الأنبياء وصاحبه الصديق .. إنها وايم الله نقلة علوية رائعة ، وصلت أسبابها ، تلك اليد الصناع التي مدّها رسول الله صلوات الله عليه لأبي بكر أخيه وصاحبه ، فأسباب الحزن متوفرة ، والشدّة الشادّة تضرب بكلكلها هنا وهناك ، وليس بين سيد العالمين وصاحبه وبين الخطر الداهم إلا أن ينظر واحد من المشركين الذين دهموا الغار إلى أسفل قدميه ...

غير أن ذلك كلّه لا يضير ، فالأمر أوسع من أن يوزن بالكفاءة المادية والأخذ بالأسباب الظاهرة وكفى ، إنه وراء ذلك وفوق ذلك ، فكون العدو المشرك ربيب اللات والعزى ، وعابد هبل ومناة ، قد تجمعت له عوامل البطش والتنكيل ، وتوفرت تحت سلطانه ، كل اسباب الصد عن دعوة الحق ، وفتن المؤمنين عن الدين ، لا يعني بحال من الأحوال ، أن يلقي المؤمن عصا الجهاد عن عاتقه ، ويستسلم لليأس ، فالله معه ، والله في عونه ما كان مستقيماً على الطريقة ، صادقاً فيما عاهد الله عليه .

ولقد يحسب حاسب أن هذه دعوة تقلل من شان العمل والأخذ بالأسباب ، وليس الأمر كذلك ، فسياق الآيات ـ كما سبق ـ : دعوة الى الجهاد ، وتحريض على القتال ، وعتب على المتثاقلين عن النصرة خفافاً وثقالاً في سبيل الله ، فان لم يستجيبوا لذلك فالله ناصر نبيه ، دون حاجة الى هؤلاء المتثاقلين ،

فلقد نصره في هجرته ، وهو على وضع غير متكافيء على الاطلاق مع العــدو «الا تنصروه فقد نصره الله ...» ... ولكن وعد الله لا يتخلف «ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم» وأخـذ العدة لا يجوز ، أن يكـون حجـاباً عـن الاستعانة الصادقة بالله عز وجل ، وطلب عونه وتأييده في كل حال .

والذي يحسبه هذا الحاسب : يدفعه من وجه آخر ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تحزن إن الله معنا .. يا أبا بكر ما ظنك باثنـين الله ثالثهما. وهو في قمة العمل والأخذ بالأسباب ، والعدو يلاحقه في السهل والجبل ، بل يتبع أثره وأثر صاحبه. حتى هذا الغار المقفر الموحش الذي لا عهد للناس به ، إلا أن يكون ذلك من زمن بعيد .

قال : «لا تحزن إن الله معنا» وهو ممسك بالأسباب آخذ بالمقدمات التي تتصل بالنتائج ، مرتفع فوق متكآت الراحة ، ومنافذ العافية ، والانعتاق من المسؤوليات نعم .. قال عليه الصلاة والسلام «لا تحزن إن الله معنا» ... قالها وهو ينتزع من نفس أبي بكر آثار ضعف الانسان في الانسان ، وما يكون من نتائج استعداد البشر للانحناء أمام قوة غاشمة ، أو سلطان فاجر . قالها وهو مهاجر يشهد لصدق هجرته في سبيل الله الجبال والسفوح والشعف ومعها الوديان والقيعة والسهوب ، كمـا تشهد له كل حبة رمل احتضنتهـا الصحراء ، وكل لفحة من لفحات الهجير ، «لا تحزن إن الله معنا» والضنى في كل لحظة ، والتعب مع كل متقلَّب في الليل والنهار ، والترقب مع كل لفتة من لفتات الزمن وكل عين من عيون الصحراء .

لقد اتسعت مكة للناس كل الناس ، من أهلها والوافدين اليها يومذاك ، ولكنها ضاقت بدعاة الحق الذين شرع محمد صلى الله عليه وسلم يصـوغهم برسالته الجديدة في مواجهة الباطل على كل أرض وتحت كل سماء ، صياغـة كانت ــ بحكمة الله ــ استجابة طبيعية لأنين الانسان عبر القرون وهو يشكو من ظلم أخيه الانسان ولصرخة الحق وهو ينادي من يأخذ بناصره من العادين عليه.

★ ★ ★

وأمر آخر : «لا تحزن إن الله معنا» دليل ان بناء الذات ممكن من الأعماق

إذا سعد القلب بصدق ((أن الله معنا)) .

لقد كان رسول الله يخاطب الذات في أعماقها ، في كينونتها وفي وجودهـا .. إن نفس ابي بكر البشرية تحمل استعدادها للتعب والحزن ، ولكن ذات الانسان في أعماقها . وكما خالقها الله مؤهلة لأن ترتفع على الطين وتسمو إلـى حيث تستشعر عظمة الله ، وسلطانه القاهر ، وكونه أكبر من كل المعوقات ، ومن كل رغبة أو رهبة .

لقد كان أبو بكر الصديق على مستوى البناء الذي عاني تكوينه محمد صلى الله عليه وسلم بكلتا يديه . وكان على مستوى تلك الرحلة العظيمة التي كانت في ظاهرها قطع مسافة بين مكة والمدينة ، على طريق مقفرة موحشة يسترها ظلام الليل ، وتختبىء من ضوء النهار .. ولكنها في حقيقتها مرحلة من مراحل نصر الانسانية العظيم .

وكم هي ماسّة حاجة أمتنا اليوم لشعار ((لا تحزن إن الله معنا)) ، وهي تعاني من ذلك الدبيب العاتي على النفوس ، يرهقها ويحاول تجريدها مـن مقومات الذات ، وعناصر الوجود والتكوين .

كم هي ماسّة حاجة أولئك الحداة على طريق الجنة ، في ضوء ذلـك الشعار ، أن يتاهبوا للتمحيص يصقل النفوس ،ويشعر بأصالة الذات ،ويحرق من طريق الداعية كل العوائق الترابية ، التي يلقيها أفعوان حب السلامة بين يديـه .

((لا تحزن إن الله معنا)) ليست ـ أيها الرواد ـ لأبي بكر وحده .. ولكنها لكم جميعاً في قافلة أمسك بزمامها أبو بكر وراء رسول الله ، وهي بعون الله وتاييده تتابع المسير ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم .